واقــع التــراث الأدبي الشعبــي في منطقتــي توات ووادي ميزاب في ظل التغيرات المعاصرة

The reality of the folk literary heritage in the areas of Tuat and Wadi Mizab in the light of contemporary changes

أ.سرقمة عاشـور - جامعة غرداية

(*sergma@maktoob.com*)

مُلخَّص البَحث

هذا بحث يتناول الكلام عن واقع التراث الأدبي الشعي في منطقتين متجاورتين من جنوب الجزائر وهما توات ووادي ميزاب، من خلال تجربة الإشراف على مذكرات تخرج الطلبة في موضوع الأدب الشعي للمنطقتين.

Abstract

This research deals with the reality of the folk literary heritage in two neighbouring areas in the South of Algeria; they are Tuat and Wadi Mizab, through the experience of supervising graduate students' theses on the subject of folk literature of the two regions.

Rèsumè

La réalité du patrimoine littéraire populaire dans les régions de Touat et de M'Zab à l'ombre des changements contemporains

Ce travail de recherche a pour but de traiter la réalité du patrimoine littéraire populaire dans deux régions voisines du Sud Algérien qui sont Touat et M'Zab, à travers les mémoires de fin d'étude réalisés par les étudiants autour de la littérature populaire des deux régions.

لقد كان الغَرب سَبَّاقاً في مجال الاهتمام بتراثه الأدبي الشعبي دراسةً وتطبيقاً، حيث اهتم الأخوان جاكوب جريم وفيلهيلم جريم -على سبيل المثال- بجمع الحكايات الشعبية الألمانية ودراستها وتحليلها؛ وإن كانت نظرتهما تَحْمل نوعاً من الإيديولوجية الجُرمانية... واهتم أيضاً فلاديمير بروب بجمع عددٍ كبيرٍ من الحكايات الشعبية الروسية وتحليلها؛ وبذلك وَضَع مجموعة من الأسُس المعرفية للمنهج البنائي؛ باستخلاصه واستنتاجه لما سَمَّاه بـ"الوظائف".

واهتم بعضٌ من علماء الغرب بالتأليف في هذا الموضوع والاهتمام به، نذكر منهم: يوري سوكولوف في كتابه"الفولكلور قضاياه وتاريخه"، وريتشارد دورسون وكتابه "نظريات الفولكلور المعاصرة"؛ وقد أشار في هذا الكتاب إلى النظريات المعاصرة، التي استهدفت بالدراسة والتحليل التراث الأدبي الشعبي، أو ما سَمَّته الدكتورة نبيلة إبراهيم بـ"أشكال التعبير الشعبي"، ومن تلك النظريات: (البنيوية، التاريخية الجغرافية، الميثولوجية، الإثنولوجية، التحليل النفسي، الوظيفية...)، هذه النظريات قامت بتحليل ودراسة أشكالٍ، مثل: الأمثال الشعبية، الشعر الشعبي، الألغاز والفوازير، الشعر الشعبي، الأغاني الشعبية، السيرة الشعبية، والأسطورة... وغيرها من الأشكال التعبيرية الشعبية الأخرى.

أما الأمر عندنا في العالم العربي فما يزال متأخراً، سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية، ما عدا بعض الجهود المُعتبرة على قِلَّتها، والتي قام بها بعض الباحثين العرب من بينهم: عبد الحميد يونس، فراس السواح، محمد المرزوقي، نبيلة إبراهيم، عبد الحميد بورايو، التلي بن الشيخ، محمد الجوهري، حسن الشامي، حلمي شعراوي، ... وتركزت جهودهم على التأليف والترجمة، والجمع والدراسة.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن كثيراً من عناصر التراث الشعبي عندنا - خاصة في الجزائر، وتحديداً في الجنوب الجزائري- ما تزال تعاني من مشكلة الشفوية، التي جعلت كثيراً من تلك العناصر التراثية تَضيع بسبب عدم تسجيلها وتدوينها، لذلك فنحن نهيب بالباحثين والدارسين

للاهتمام بهذا الجانب؛ وإنقاذ ما تبقى من هذا التراث الأدبي الشعبي بتدوينه وتحقيقه ودراسته وتحليله، لأنه جزء من ذاكرتنا وتاريخنا، بل ومن شخصيتنا.

وقد قال أحد المستشرقين الألمان، وهو (هانس ستيم) *Hans Stumme*:

« إنّ العرب المغاربة لم يهتمُّوا إلاَّ قليلاً بتُراثهم الشَّعبي في شعره ونثره، رغم أنَّهم يملكون إنتاجاً أدبياً رائعاً. لذلك فإنَّ الكثير من هذا الإبداع ـ خصوصاً منه الشِّعر ـ سينتهي به الأمر ـ إنْ عاجلاً أو آجلاً ـ إلى الضَّياع في أعماق مُحيط النِّسيان... »[1].

تُعتبر منطقة توات الواقعة في الجنوب الغربي من الجزائر؛ ومنطقة وادي ميزاب الواقعة في وسط الجنوب الجزائري من أهم المناطق الغنية بالتراث الشعبي على المستوى الوطني؛ إذ تساهمان بشكل كبير في رسم خارطة وأطلس التراث الشعبي في بلادنا، ويتمثل هذا الثراء في الأنواع المختلفة من الآثار الشعبية، سواء ما تعلق منها بالتراث الشفوي أو المادي، ولعلّ الأدب الشعبي من أهمّ ما يتميز به تراثهما الشعبي.

أما منطقة توات فهي التي يُعْرَفُ جُزءٌ منها بـ "ولاية أدرار" في الجنوب الغربي من الجزائر، وقد اعتُبرت ولايةً بعد التقسيم الإداري لعام 1974، وتقع في الجنوب الغربي للصحراء الإفريقية الكبرى، وتبعد أقرب نقطة منها عن العاصمة الجزائرية بحوالي 1500 كلم، وهذه المنطقة كانت تسمى قديما بـ"توات" كما أسلفت الذكر ـ وهي «تشتمل على عدد من الواحات والمدن والقصور تزيد عن الثلاثمائة وخمسين واحة متناثرة هنا وهناك»[2]على رمال الصحراء، وهي أشبه بالأرخبيل في البحار؛ وحسب دليل ولاية أدرار فهي «تغطي مساحة 427، 968 كلم^2، وينحصر موقعها الفلكي بين خطي 01 درجة شرقاً و03 درجات غرب خط غرينيتش، وبين دائرتي عرض 20 درجة إلى 30 درجة شمالا»[3].

وتُحُدُّ المنطقة من الشمال ولاية البيض ومن الغرب ولاية بشار وتندوف ومن الجنوب مالي والنيجر، ومن الشرق ولاية تمنراست.

أما عن أصل تسمية المنطقة بـ"تَوَات" فقد تضاربت الآراء في ذلك، ويُرجع محمد بن عمر بن محمد بن المبروك في كتابه " نقل الرواة عمن أبدع قصور توات" سبب « تسمية هذا الإقليم بتوات، على ما يحكى أنه لما استفتح عقبة[4] بن نافع الفهري بلاد المغرب، ووصل ساحله، ثم عاد لواد نون ودرعة وسجلماسة[5]، وصل خلية توات، ودخل بتاريخ 62 هـ، فسألهم عن هذه البلاد يعني توات، وعن ما يسمع ويفشى عنها من الضعف، وهي تواتي لنفي المجرمين من عصاة المغرب، ينزلهم بها أو يجليهم بها، فأجابوه بأنها تواتي، فتغير اللفظ على لسان العامة لضرب من التخفيف»[6]، فأصبح الناس ينطقونها " تْوَاتْ ".

ويرى الشيخ سِيْدْ البَكري (ت. ق.14هـ)، في أصل التسمية رأياً آخر حيث يقول:« في سنة 518هـ حيث غَلَبَ المهدي[7] الشيعي سلطان الموحدين على المغرب. بعث قائديه علي بن الطيب والطاهر بن عبدالمؤمن لأهل الصحراء، وأمرهما بقبض الأتوات، فعُرف أهل هذا القطر بأهل الأتوات، لأن السلطان قبله منه في المغرم»[8]، ونجد البَكري (ت. ق.14هـ) يُعلِّق على هذه الرواية بقوله: « وهذه الرواية أصح، ولهذا اللفظ مُسندٌ في العربية. قال في المصباح[9]: التوت هو الفاكهة والجمع أَتَوَاتٌ، فعُرف أهل هذه البلاد بأهل الأتوات، فحُذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.... فصارت توات بعد حذف التعريف والمضاف... وصار هذا الاسم يُطلق على هذا القطر الصحراوي، من تبلكوزة إلى عين صالح»[10].

والآراء حول أصل تسمية المنطقة كثيرة ومتعددة، ونختمها في إطلالتنا هذه برأي آخر للسعدي، يقول فيه بأن أصل الكلمة تكرورية «لأن الإنسان الأول الذي تخلَّف هناك توجَّع في رجله، وتوطن هناك فسُمِّي الموضع باسم تلك العلة»[11].

والمهم في الأمر كله أن الاختلاف في أصل التسمية يرجع إلى أصل الاشتقاق؛ هل هي مشتقة من الفعل (واتَى، يُواتِي، وتُواتِي)، أو هو

اسم للأتوات والمغارم.

وتتشكل منطقة توات عبر مجموعة من القصور المتزامية هنا وهناك. وتُقَسَّم المنطقة إلى أربعة أقاليم هي: قُورَارَة، تَوات، تِيدِيكَلْت، تَنَزْرُوفَتْ. كما كانت المنطقة كذلك نقطة التقاء واتصال مع القوافل التجارية القادمة من الشمال إلى الجنوب، نحو أسواق إفريقية الغربية،[12] ولقد كانت العاصمة الأولى للإقليم هي مدينة "تَمَنْطِيط"، نظرا لتميزها العلمي والديني والعمراني؛ ثم انتقلت العاصمة إلى "تيمي" مع نهاية القرن السابع عشر الميلادي، وقد دخل الفرنسيون إلى الإقليم بعد محاولات عديدة، نظراً لمقاومة الأهالي المستميتة مع بداية القرن العشرين.

ويرجع أصل السكان في توات إلى أصول ثلاثة رئيسة، وهي: البربر، وأصلهم من الشمال، وكانوا يعيشون في وسط الصحراء؛ والأصل الثاني وهم من العرب، الذين كان وصولهم عبر فترات متقطعة؛ وخاصة عندما كانت منطقة الشمال تكثر بها النزاعات، أما الأصل الثالث فهو العنصر الزِّنْجِي.

أما أقدم القصور التي بُنيت، فقد كانت على شكل تحصينات تؤرخ إلى عصور قديمة جداً، تُنسب للقبائل البربرية الأولى التي قدمت إلى المنطقة، وهم الجِيتُول، وقد استمرّ توافد قوافل المهاجرين إلى غاية وصول هجرات من العرب، فقاموا ببناء قصور خلال القرن السابع الميلادي، وقصور أخرى عُرفت بقصور تَاوْرِيرَتْ؛ في مناطق تِيمِيمُون وضواحيها، وأيضا في منطقة رَقَّانْ.

وقد شهدت المنطقة حركة علمية وثقافية وأدبية، يُعَدُّ خير شاهد عليها تلك المكتبات الخاصة[13] التي تحوي مئات المخطوطات في مختلف العلوم، من فقه وأدبٍ وتصوفٍ، وعلم الفلك والتاريخ والأنساب وغيرها.

ونظراً لأهمية المنطقة فقد كانت قبلة للكثير من المؤرخين والرّحالة العرب والغربيين، نذكر من العرب ابن بطوطة[14] والعياشي[15]...، ومن الأجانب نذكر جاكوب أوليل *Jacob Oliel*[16]

وإدوارد بلانك[17] Edouard Blanc وكاميل ساباتيير[18] Camille Sabatier، هذا الأخير الذي أذهله نظام السقي التقليدي باستعمال نظام الفقارة [19] الذي تشتهر به المنطقة.

وهذا التنوع الثقافي والبشري والجغرافي جعل منطقة توات غنية بالتراث الأدبي الشعبي، فمن الشعراء الشعبيين نجد الشاعر سيدي محمد بن المبروك البودوي، وسيدي محمد إيداوعلي، والسي عبد الحق القاضي، وامبارك جعواني، وعبد العزيز المهداوي، وغيرهم كثير، ومن الشاعرات مثلاً نجد الشاعرة نانا عائشة؛ وهي حفيدة الشاعر سيدي محمد بن المبروك البودوي، شاعرة متصوفة وزاهدة، ابنة سيدي محمد بن المبروك الابن صاحب كتاب "نقل الرواة عمن أبدع قصور توات" قالت 110 قصيدة في مختلف الموضوعات حسب ما روي لنا من طرف حفدتها[20].

ولها قصيدة مطلعها:

كُلْ يوم عْليكم بَرَّاحْ[21] يا الصَّلَّاحْ *** يَا رْجـــالْ الله غِيتُونـــي[22]
قُلْتْ بَـــاسْم الله بَـــــاشْ ابْـــدِيتْ *** فِـــي كْلاَمـــي نَظْمي بيتُو
يَـــــا اهْل الهَيْبَه وَالْـــــوَقَـــــارْ *** يَا السَّـــــادَاتْ الأَوْلـــيَـا
يَـــــا دْرَاري رُشَّـــــادْ احْـــــــرَارْ *** يَا اجْدَادِي طُولُوا[23] فِيَـا

ومما قالته:

يَـا نَفْسي يَهْـديكْ[24] تُـوبي للغفارْ
نُوصيك أُو نُوصيكْ مَا اعْظَمْ الآخرهْ
كَانْ بْغيتِ[25]خِيرْ لِيكْ خُذِي لَخْبَارْ
طِيعِي رَبَّـكْ لاَ تْكُـــونِي مَـــغْرُورَهْ

ومن قصائدها أيضاً:

اخْيَارْ القُولْ الاَّ عْلَى النْبِي قُولُوا لَلْقَوَّالاَ
هُو اللِّي يَسْتَاهْلْ الشْكَرْ صَلَّى اللهْ عْلِيهْ
مَا يَبْخَلْ مَدَّاحُو فْلاَخْرَا يَرْجَى يَشْفَعْ فِيهْ

وأيضاً:

نَشْكَرْ رَسُولْ اللهْ وَعْلِيهْ انْحِيبْ اكْلاَمِي
وَانْوَرَّدْ لُو مَعْنَاهْ يَا رَبِّي قَبْلْ انْظَامِي
نَشْكَرْ رَسُولْ الله يَعْمَلْنِي دِيمَا فِي احْمَاه
وِيسَلَّكْنِي فَضْرَاهْ قَلْتْ انَا فِي تَخْمَامِي

وأيضاً:

امزِينْ لَفْكَاكَا لَوْجَاتْ لَلِّي وَاحَلْ
وَالاَّ لِيغَاتَا لَوْ صَابْهَا حَصْلاَنْ
فَكّ اوْحَلْتِي يَا حَنَّانْ يَا مَنَّانْ

وغيرها من القصائد الأخرى، ولعلَّ من بين المشكلات المعاصرة التي قد تواجه الباحث في الأدب الشعبي؛ هي مشكلة موت بعض الحُفَّاظ والحاملين للتراث الشعبي، مما يجعلهم يرحلون ومعهم مكتبة ضخمة من الأشكال التعبيرية التي يحملونها في صدورهم، وهو ما حدث لنا مع بعض الحفاظ بتوات، حيث فوجئنا بوفاتهم، مثل: عمي عبد الله المعروف محلياً بـ "ابَّا بَلَّه" و"الحاج بن الوليد الوليد" وغيرهم كثير.

ومن الأمثال الشعبية الشائعة في توات نذكر ما يلي:

- "اللِّي خْدَمْ فَاحْ[26] وَاللِّي رْقَدْ جَاحْ[27] وَالشَّادْ مَنْ غِيرْ الله طَاحْ[28]"
- " اللِّيْ فِيهْ دَا مَا يَهْدَا "
- "القط يعلم لباه النط "
- " القُرْآنْ غَرْسَا وَاللِّي بْغَا مَا يَنْسَا كَلْ يَوْمْ يَقْرَا خَمْسَا "
- " اعْجَلْ تَبْطَا"
- " اللِّي مَا ايْغِيرْ والاَّ ايْحِيرْ دْوَاهْ[29] النْحِيرْ"
- " أُو سَاعِي[30] يَا الدَّارْ أُو زِيدِي صَالَه[31]"
- " قَدُّو[32] قَدْ الفُولَه أُو حَسُّو[33] حَسْ الغُولَه "
- "اللِّي يَحْفَرْ جَرْحْ اقْدِيمْ إِحَوَّطْ عْلَى فَتْنَه اجْدِيدَه "
- " لَكْلاَمْ الزِّينْ ايْخَلَّصْ الدَّيْنْ "

ـ " اللِّي ابَّاهْ فْحَلْ عَمْرُو[34] مَا يُوْحَلْ[35]"

وغيرها من الأمثال الأخرى التي أوردنا منها ما يُقارب (800) مثل في بحثنا "أمثال شعبية في ولاية أدرار".

وأيضاً من التراث الأدبي الشعبي في توات نجد الحكايات الشعبية والأمثال والألغاز والسير الشعبية والأساطير، والأغاني الشعبية وغيرها من الأشكال التعبيرية الأخرى مما أشرنا إليه أيضاً في كتابنا:" الرقصات والأغاني الشعبية بمنطقة توات -مدخل للذهنية الشعبية-"[36].

وتُعتبر الحكايات الشعبية من بين أهم العناصر الأدبية الشعبية التي تشهد عزوفاً كبيراً من طرف الأجيال المعاصرة، بسبب التجاء كثير من الأطفال -على سبيل المثال- إلى وسائل الإعلام؛ خاصة المرئية، التي أصبحت تضمّ في باقاتها عديد من القنوات التي تقدم برامج للأطفال؛ واحتلت مكان تلك الجلسات الحميمة التي كانت تعقدها الأسر والعائلات، خاصة في ليالي الشتاء الباردة؛ حول موقد للنار؛ أو قدر الحساء، ويستمع الأطفال للحكايات التي تُروى من طرف الجدّ أو الجدة؛ أو الأب أو الأم أو غيرهم من الكبار في العائلة، لما يمتلكونه من خبرة في الحياة، وغالباً ما يكون موضوع الحكاية متناسباً مع حدثٍ وقع في ذلك اليوم، وتجتمع العائلة صغيراً وكبيراً، الابن بجانب والده، والبنت بجانب أمها، ويجتمع الجميع مع بعض، وقد تناقش في هذه الجلسات بعض القضايا التي تخص العائلة، على ضوء الحكم والعِبر المستشفة من تلك الحكاية أو الحكايات.

وليس كما هو الحال اليوم، حيث لا يلتقي الابن مع والده -في الغالب- إلا في رواق البيت، أو إذا جلسا مع بعضٍ فإنهما لا يُحسنان اختيار موضوع يتناقشان حوله، وكلٌّ في غرفته في عالم غير العالم الذي يوجد فيه باقي أفراد العائلة، خاصة إذا كان لكل طفل غرفته؛ مزودة بتلفاز وجهاز إعلام آلي مربوط بشبكة الأنترنيت، ففي هذه الحالة قد تعجز الأم عن تنشئة أبنائها تنشئة صحيحة وسليمة، لأنهم وببساطة عندما يدخلون إلى غُرفهم لا تستطيع السيطرة عليهم، ومعرفة ما يقومون به بالتحديد.

أما الجَدُّ والجَدَّةُ أو الكبار في العائلة، والذين كانت لهم أدوار محورية في الحَلِّ والعَقد، ويُرجع إليهم في كل المشكلات، فقد هُمِّشوا؛ وأصبحت كثير من العائلات لا تَعتد بآرائهم، ولا تستشيرهم؛ وتكتفي فقط بإطعامهم كأنهم أطفال صغار.

وهكذا يُصبح العالَم قرية صغيرة في تسهيل الاتصالات بين أفراد مجتمعاته، ولكنه مجموعة من الجُزُر في ناحية الترابط الأُسري، فتجد في الأسرة الواحدة من يحمل فكراً شرقياً، وآخر غربياً...

أما منطقة ميزاب أو وادي ميزاب؛ فإننا ومنذ أن أشرفنا على تدريس مقياس الأدب الشعبي لأقسام السنة الثالثة ليسانس تخصص أدب عربي بالمركز الجامعي غرداية؛ فإننا استطعنا اكتشاف عديد من الروائع الشعبية التي تزخر بها غرداية وضواحيها؛ من أمثال أشعار الشاعر قدور بلخضر بيتور وعبد القادر الشرع؛ ومن الشعراء أيضاً الذين كتبوا باللغة الميزابية نجد: صالح تريشين وعبد الوهاب حمو فخار وغيرهم، كما نجد الأمثال والألغاز والأهازيج الشعبية والسير الشعبية في مناطق مثل: متليلي وزلفانة وسبسب والقرارة وبريان وغيرها...

وقد قمنا في قسم اللغة والأدب العربي بالمركز الجامعي غرداية بالإشراف على ما يُقارب المائة بحث في مقياس الأدب الشعبي خلال ثلاثة سنوات كلها حول الاهتمام بالتراث الأدبي الشعبي جمعاً وتحقيقاً ودراسة ومقاربة، وحوالى 90 % بالمائة منها خُصصت لتراث المنطقة (غرداية وضواحيها).

وأشرفنا وما زلنا نُشرف على مجموعة من البحوث في هذا المجال منها:

- قدور بلخضر بيتور -حياته وشعره-.
- توظيف التراث الشعبي في مسرح الطفل بالجزائر.
- المنحى الصوفي في الشعر الشعبي بمنطقة متليلي -من خلال عينة مختارة-.
- الشعر الشعبي بمتليلي الشعانبة -ابن الشروع قدور نموذجاً-.
- الشعر الشعبي في منطقة المنيعة -الشاعر شْيِيرْ جلول- عينة.

ـ الشاعر علي بن حسن أولاد مبارك اليحياوي البَرِّياني -حياته وشعره-.

ـ الأغاني الشعبية بمنطقة ضاية بن ضحوة (عرش لمذابيح) -دراسة أنثروبولوجية-.

ـ الحكاية الشعبية بمنطقة متليلي -دراسة بنيوية مورفولوجية-.

ويبعد مقر ولاية غرداية عن العاصمة الجزائر بمسافة قدرها 600كلم نحو الجنوب.

تقع الولاية وسط شمال الصحراء الجزائرية، وتتربع على مساحة تقدر بـ86105 كلم^2 تضم حوالي أزيد من 334754 نسمة، تتفرع إدارياً إلى تسع دوائر، وتشتمل على ثلاث عشرة بلدية وهي: غرداية، بنورة، العطف، ضاية بن ضحوة، بريان، القرارة، متليلي، زلفانة، حاسي لفحل، منصورة، سبسب، المنيعة، حاسي القارة.

تحدّ المنطقة من الشمال ولاية الأغواط، ومن الشرق ولاية ورقلة، ومن الجنوب ولاية أدرار، ومن الغرب ولاية البيض، وإذا ألقينا نظرة خاطفة على موقعها نلاحظ أنها تتوسط عدة ولايات متميزة بثقافاتها المتنوعة.

وهذا الثراء الثقافي انعكس في عدة أشكال تعبيرية أدبية، منها مثلاً الأشعار الشعبية التي ذكرنا بعضاً من أعلامها فيما سبق، والذين من بينهم الشاعر والمجاهد الشيخ شبير جلول بن ابراهيم، الذي وُلد سنة 1920 في مدينة المنيعة، وكان والده شاعراً كبيراً في المنطقة، له عدة أشعار في مختلف الموضوعات، في المديح النبوي والوصف والغزل والرثاء وغيرها، من قصائده:

يَا مَرْقُومْ الرِّيشْ نَكْتَبْ لِيكْ ابْرَا
سَالْ وْسَلَّمْ يَـا القُـمْري عَلْلَحْبَابْ
يَا مَرْسُولي نْحَشْمَكْ تَعْنَا بُوجَـابْ
سَالْ عَلْلعُربَانْ سَكَّانْ الصَّحْرَا
قُوللهم يَا خَاوْتِي ذَا الوَقْتْ اصْعَابْ

وله أيضاً:

صَلِّي عْلَى النَّبي يَا فَاهَمْ فِي قُولهَا *** ألفِينْ بَالصَّلاة وَالَفْ اسْلاَمْ تْبَاتْ
صَلوا عْليهْ كَامَلْ شَافَعْ الاَمَّاتْ

سُبحانْ اللِّي خْلَقْ الاَرْوَاحْ أُو مِيجَالْهَا *** الرَّزْقْ وَالْعْمَرْ بِيدُو فَالحَيَاةْ

ومما قاله نجد:

جمَّل يَا حَادَقْ طْوَايَرْ نَعْطِيكْ أُوصَايَا
سَالْ عْلَى الدَّارْقِينْ مَهْزَمْنِي يَوْمْ افْرَاقُو
حَدَّه وَمْبَارْكَه اوْعَيْشَه مَنْ يَامَسْ صَاقُو
رَحْلْ نَجْعْ البْنَاتْ بَعْدْ اللِّي كَانْ اهْنَايَا
كِي نَخْزَرْ فَالرْسَامْ رَادُو لَلْقَلْبْ انْكَادُو

ومن الشعراء الذي كتبوا باللغة الأمازيغية (الميزابية محلياً) نجد الشاعر عبد الوهاب حَمُّو فخار[37]، فله عدة دواوين شعرية منها: ديوان: " اِمَطَّوَنْ نْ لْفَرْحْ"أو " دموع الفرح" سنة 1984، والذي أعيد طبعه بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007[38].

ومن شعره قصيدة:" أُمْزَابْ جَارْ بَارِيوْ اَنْ وَغْلاَنْ"، وهي قصيدة كتبها في شهر أوت 1978، يُصور فيها حياة شاب مزابي، وهي قصة تصور مراحل عديدة قاسية منها: الطفولة المشردة والضائعة بين أبوين غير منسجمين، الشباب ومرارة الهجرة، صعوبة الرجوع إلى الوطن في مرحلة الرجولة، وأخيراً صعوبة الاستقرار في الوطن بعد غربة طويلة.

يقول في مطلعها:

تَلَقِّـــيسْ وُنْ سَلَّسْ اِتْنَـــــهَّتْ ** تِشْلِ نِيَّارَنْ يَبْــعَدْ فَتْعَمِّـيسْ
يَــرْوَلْ لَتْمُرا نَـتَّ غِ نِـــيـــلاَنْ ** اِزِيَّرتْ ازْمَـــانْ اَلْدَيَرَّزْ اِرِيسْ

وأيضاً الشاعر صالح ترشين، وهو من مواليد 1952 ببني يزقن(غرداية)، وهو باحث في التراث، ومعِدٌّ لعديد البرامج الإذاعية التي تهدف إلى التعريف بالتراث المحلي خاصة الأمازيغي (الميزابي)، وله عدة أشعار جمع بعضها في ديوان بعنوان: " أُولْ اِنُو" (قلبي).

ومما قاله فيه:

اَلاَلاَّ زَطْ اِزَطْوَانْ *** اَلاَلاَّ اَوِيـــدْ اِزَلْوانْ[39]
اَلاَلاَّ اَرِي اُسَّـــانْ *** سَتْنَلَّي جَارْ اِغَرْسَانْ

وترجمته:

يا حَسْـــنَاء انســجي *** يا حسناء انشدي الأشعار
يا حَسْنَاء اكتي الأيـام *** بالخـــيط بـــين الأسدية

وله أيضاً:

اَيَـــــمَّا اَيَـــمَّا اَمُومُو اَوُّلِيكْ[40]
اَتِيفَاوْتْ نُدْمِيكْ اُزُورْ نُغَرْمِيكْ

وترجمته:

يا أُمَّاه يا أُمَّاه يا لُبَّ فؤادي
يا نور وجهي وأصل بلدتي

ومما تناقلته الأجيال جيلاً بعد جيلٍ في غرداية نجد بعض الروايات الشفهية المتعلقة بسيرة البطلة الثائرة "بَنْتْ الخَسْ"، وأيضاً حكايات الكرامات المتعلقة ببعض الأولياء مثل:"سيد المُستجاب" و"لالة عشُّو" التي ارتبط اسمها بساحة سوق قصر بني يزقن؛ والذي هو إلى حد اليوم يسمى باسمها، ولهذا الارتباط قصة تُروى محلياً، فحواها أن هذه المرأة كانت امرأة صالحة، وكانت قد قامت بحفر بئر في ساحة تملكها، وذات يوم نزلت كعادتها للحفر، وكانت منهمكة في عملها إلى حدّ غفلتها عن الوقت، وبعد أن صعدت من البئر وجدت أن وقت صلاة المغرب (وقيل العصر) قد فاتها، فتأسَّفت كثيراً لهذا التضييع غير المعهود؛ وأرادت أن تُكَفر عنه، فتبرعت بتلك الساحة لصالح العامة (وَقْف)، فسميت بـ:"ساحة لالة عشّو"، وهي حالياً تحت إشراف المسجد؛ يتوسطها ذلك البئر، وتُستعمل للبيع بالمزاد العلني لبيع الأثاث التقليدي والمنسوجات، وطريقة البيع هذه شبيهة بعمل البراح في الأسواق الشعبية، والمعروف بحكمته، وقوة صوته، وحيويته التي يُبهر بها الحاضرين، ويُغريهم بشراء ما يعرضه للمزايدة باستعمال عبارات ما تزال تحتاج إلى جمع ودراسة قبل أن تزول بمرور الأيام.

وأيضاً الروايات المختلفة حول نظام "العَسَسْ" الذي تشتهر به

المنطقة، كنظام للأمن يقوم به بعض الشباب لحراسة الأحياء والمحلات والمعالم الأثرية وغيرها. وروايات أخرى متعلقة بـ"المهري" والزربية التي تشتهر بها غرداية وضواحيها، وكذلك بعض الأناشيد والمدائح والأهازيج التي تؤدى في الأعراس والحفلات، والتي تنشدها عدة فرق محلية، مثل فرقة: "أوتشيدن" و"الفرقة الموسيقية للفن والفولكلور" و"النغم" و"بدر الهدى" و"صوت اليقين"...

ومن أشكال التعبير الشعبي المتداولة في غرداية نجد الأمثال الشعبية، ومن أمثلتها بالميزابية:

ـ تَمَشَّيْطْ تَنَّا: وِنَّانْ تِيدَتْ اَدْيَمَّتْ.

التينة قالت: من يقول الحق يموت. عبارة متداولة محلياً، وموردها قصة شعبية تحكي، أنه كان في أحد الأزمنة تينة تحكم بين الناس، وذات يوم حَكَمت لمظلوم ضعيف على ظالم مستبد. فما كان من الظالم إلا أن استأصل التينة، فقالت التينة حين موتها هذه العبارة السائرة محلياً.

ـ " تُفَّاسْ تَشَّاتْ لَبْعيدْ".

يُقال للشخص الذي لا يَنفع أقاربه.

ـ " تِيتِي نِيلْسْ تُعْرْ فْتِيتِي نُومْجْرْ".

ومعناه: جرح اللسان أصعب من جرح المنجل.

ـ " وِخْسْنْ تِينِي أَدِحْمْلْ تَدْرِيوِينْ "

أي: من يريد التمر عليه أن يتحمل الشوك.

ـ "يَرْوَلْ اسْتَجْنِيوتْ يَقِّيمْ أَقُدْ اُسفِيرْ"

ويعني: هرب من المطر وجلس تحت المزاب. ويضرب للذي يُخلص نفسه من مشكلة؛ ويوقع نفسه فيما هو أكبر.

ـ "يَكْلِي لَعْوِيْنَسْ تِيرْسْتْ".

ومعناه: رمى زاده في البئر. مثل يقال لمن لا يعرف مصلحته.

ومن الأساطير المعروفة بغرداية "أسطورة أبا نوح" وهو سيدنا نوح عليه السلام، الذي أنقذ قومه من الكفر والجهل ومن عقاب الله عليهم، فتقول الأسطورة: إنه عندما كان يُعمِّر في الجبل وقومه تحت يطلبون منه

بأن يَرمي لهم بعض الزاد من عنده؛ وذلك من شدة الجوع والألم الذي أصابهم، فكان سيدنا نوح عليه السلام يرمي لهم بالخيرات من فوق الجبل.

وعليه سارت الأسطورة الشعبية بغردايةَ؛ حيث تقام عادة مشهورة في وادي ميزاب[41]؛ وبالضبط عند العشرة أيام الأولى من شهر محرم. تقوم كل عائلة بدعوة أفرادها؛ ويكون هذا عند النساء خاصة وأطفالهن، ويجتمعن في الفترة المسائية، بعدها يصعد الأطفال إلى السطح الأوسط حول الشبَّاك؛ ويُعطى لكل منهم القليل من الفول السوداني (الكاوكاو) والفول والحلويات والسكر، وينشدون هذ المقاطع:

ـ أَبْيَا هَنُّو لَاَلَّانُّو صدق الله وَتْعَلِي هَيْ.

ثم يرمون ما في أيديهم من خلال الشباك، وحينها تكون النسوة قد افترشن قطعة قماش فتسقط عليها كل تلك الهدايا.

وعندما ينزل الأطفال من السطح تُقدم لكل واحد منهم كمية من الحلويات وما يُفرحه، وتجتمع النساء مع بعضهن حول ما أُفرغ من الشباك من الخيرات، ويُقسمنه بينهن، وذلك مع عادة أَلَاوُنْ أو البُوقالة، مع احتسائهن لكأس من الشاي والحلويات.

ولا بد أن نشير إلى أن معظم هذا التراث الأدبي الشعبي ما يزال مروياً لم يُدَوَّن بَعْدُ، وهو يتعرض اليوم إلى كثير من العوامل الاجتماعية والإعلامية وغيرها؛ والتي تدخل تحت إطار العولمة، التي من أهدافها القضاء على الخصوصيات الثقافية للمجتمعات.

وتُعَدُّ مشكلة الشفهية من أصعب المشكلات التي تتعرض لها أشكال التعبير الشعبي، فهي تُبقي هذا التراث مروياً غير مدون؛ مما قد يتسبب في ضياع الكثير منه، خاصة بسبب نسيان البعض من الحاملين له للكثير من المرويات وبعض التفاصيل التي تهم الباحث، لذلك يجب أن تتظافر جهود الباحثين للتعريف بهذا المخزون الثقافي والتراثي، والمحافظة عليه بتدوينه ونشره، وإقامة ملتقيات لإيجاد أحسن السّبل للمحافظة عليه من الزوال والاندثار، لأنه جزء من ذاكرتنا، بل ومن كياننا وشخصيتنا...

ومن التحديات المعاصرة التي قد تواجه الباحث في هذا المجال، هي

امتناع بعض المُلاَّك عن التصريح ببعض ما يحملونه من كنانيش ومرويات، ويعتبرونها أحياناً ميراثاً يجب ألا يُسلَّم لأحد، وهو ما يُعقِّد مهمة الباحث، إلا إذا استعان ببعض ممن لهم علاقة وطيدة بهؤلاء المُلاَّك أو يُمكنهم التأثير عليهم.

ومن المشكلات التي تواجه أشكال التعبير الشعبي هي مشكلة الإعلام، الذي لم تُخصص فيه -بمختلف أنواعه- صفحات قارة فيما يخص الجرائد والمجلات، وحصص إذاعية وتلفزية، كلها تهدف إلى التعريف بهذا التراث الشعبي، فتخصص حصصا للتعريف بأهمّ أعلام الشعر الشعبي في الجزائر عموماً وفي الجنوب خصوصاً، لأن الكثيرين ليست لهم أدنى معرفة بأكبر الشعراء الشعبيين مثلاً، وحصصا تستضيف بعضا من الحكواتيين للاستماع لبعض مروياتهم، بل ربما نذهب أبعد من ذلك؛ حيث يُمكن أن تُحوّل هذه الحكايات الشعبية إلى تمثيليات إذاعية وتلفزية ورسوم متحركة للصغار والكبار، وقد كانت لنا تجربة متميزة في إذاعة أدرار الجهوية في برنامج سميناه "حكايات شعبية"، حيث استطعنا تسجيل بعض الحكايات الشعبية بصوت رواتها، ثم بعد ذلك عَرَضنا نصوصها على فرقة مسرحية بالمنطقة هي فرقة "فن الخشبة" وأعيد كتابة السيناريو لتكون مسرحية إذاعية، وتمَّ توزيع الأدوار، وسُجِّلت في استوديوهات الإذاعة ثم أُضيفت لها المؤثرات الصوتية والموسيقية، وكانت تجربة متميزة، وتلقينا حولها أصداء طيبة.

ولعلَّ من أهمّ سبل التعريف وبعث التراث الأدبي الشعبي هي الطباعة والنشر، سواء طبع البحوث التي يقوم بها الباحثون حول هذا التراث، أو طبع دواوين الشعراء مثلاً، وبعض الكتب التي تسجل وتدون هذا الإرث الثقافي.

ونحن على اتصال ببعض الباحثين الجزائريين خاصة في الجنوب الذي أبدوا أسفهم الشديد في عدم رؤية بعض أعمالهم -التي أخذهم منهم معظم أوقاتهم وأموالهم- النور بسبب غلاء تكاليف الطبع، وإن كانت

هناك بعض الهيئات التي تتكلف بالنشر؛ إلا أن العملية قد تأخذ وقتاً طويلاً...

لذلك نقترح ما يلي:

- ـ تسجيل ما أمكن من مواد التراث الشعبي الأدبي؛ خاصة في الجنوب الجزائري.
- ـ تكوين أرشيف ورقي ومسموع ومرئي.
- ـ وضع هذا الأرشيف في متناول الباحثين والدارسين.
- ـ تحقيق ما هو مخطوط من هذا التراث الشعبي الأدبي.
- ـ تحليل ومقاربة هذا التراث الشعبي الأدبي باستخدام المناهج النقدية الحديثة.
- ـ تأسيس مخابر وفرق بحث للاهتمام بهذا التراث.
- ـ تشجيع الباحثين والطلبة لاختيار بحوثهم في هذا المجال.

الهوامش والمراجع المعتمـــــــدة

(1) سونك، الديوان المُغَرَّب في أقوال عرب إفريقية والمَغرب، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، (مقدمة الكتاب).

(2) فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1977، ص:15.

(3) مجلة جمعية الأبحاث والدراسات التاريخية لولاية أدرار، 2001، ص:03.

(4) « هو عقبة بن نافع الفهري، ولد في السنة الأولى قبل الهجرة، ولاَّه يزيد بن معاوية على إفريقيا سنة 62 هـ، وتوفي بمدينة بسكرة بالجزائر ». أنظر: بوعمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، 1995، ص365- 366.

(5) « واد نون ودرعة وسجلماسة مدن تقع في المغرب الأقصى، وتعتبر سجلماسة من أكبر العواصم التاريخية وأقدمها ارتباطا بمنطقة توات، تأسست سنة 140 هـ، 757 م ». أنظر: عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية " معلمة المدن والقبائل "، ج2، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1977، ص: 62.

(6) محمد بن عمر بن محمد بن المبروك، نقل الرواة عن من أبدع قصور توات، مخطوط بخزانة بودة، أدرار، ورقة:40.

(7) « هو محمد بن عبد الله بن تومرت المعروف بـ "المهدي"، بدأت مبايعته على الخلافة سنة 515 هـ، وتوفي سنة 524 هـ ». أنظر: أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، ص: 42.

(8) محمد بن عبد الكريم البكري، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة المطارفة، ولاية أدرار، ورقة: 06.

(9) أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير، ج1، ط4، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1921م، ص: 108.

(10) درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، م. س، ورقة: 06.

(11) تاريخ السودان، تح: هوداس، مطبعة بردين باريس، 1964م، ص: 08.

(12) للتوسع أكثر: أنظر: يحيى بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، د. ت، د. ط، ص: 131 وما بعدها.

(13) من بين تلك المكتبات مكتبة أولاد سعيد والمطارفة وبودة وكوسام وتيمي وباعبدالله وزاوية كنتة وأقبل وآولف....وغيرها، ونشير أن أغلب تلك المخطوطات ضاعت بسب الإهمال تارة، وبسبب عدم المعرفة بطرق العناية بها، تارة أخرى.

(14) أشار إلى ذلك في رحلته الموسومة بـ " رحلة النظار في عجائب الأسفار وغرائب الأمصار "، المكتبة العصرية (صيدا) الدار النموذجية(بيروت)، 2005.

(15) أنظر رحلته المسماة بـ " ماء الموائد "، طبعة حجرية، دار الآفاق، 1898..

(16) أنظر كتابه: " Les juifs au sahara – Le Touat au moyen age / cnrs histoire. Paris 1994

(17) أنظر كتابه: Les routes septentrionale de l`Afrique au Soudan / societe de geographie Paris. 1890

(18) سَجَّلَ زيارته للمنطقة في كتابه:

(Societe d`editions scientifiques.1891" Touat Sahara et Soudan)

(19) الفقارة: تعد أقدم مصدر مائي للسقي بالمنطقة، وهي عبارة عن سلسلة من الآبار تُحفر عموديا في الأرض، للوصول إلى المياه الجوفية، والبعد بين هذه الآبار يختلف باختلاف مناطق الفقاقير، ونفس الشأن بالنسبة لعمق البئر. ترتبط الآبار مع بعضها البعض في الأسفل (العمق) بواسطة أنفاق وأخاديد تسمى محليا بـ (آنْفَادْ)، تُشق لتوصيل المياه فيما بينها، مع وجود انحدار بسيط يسمح بحركة الماء وتدفقه عبر الأنفاق، يتم استقبال هذا الماء عند المخرج بواسطة ساقية تسمى(آغِيسْرُو أو آغُوسْرُو)، وتوجه المياه بعدها إلى الموزع المسمى بـ (القَسْرِيَّةُ)، ليتم تقسيمها عبر نظام دقيق باستعمال وحدة أساسية دقيقة تدعى (الحَبَّه)....

(20) سرقمة عاشور، الشعر الشعي الديني في منطقة توات: مع قراءة في شعر الشيخ سيدي محمد بن المبروك البودوي، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران، الجزائر، 2008، ص: 35.

(21) براح: منادي في الناس لإخبارهم بأمر ما.

(22) غيتوني: أغيثوني.

(23) طولوا في: أحنوا علي.

(24) يهديك: يهدك الله.

(25) بغيتي: شأت وأردت.

(26) فاح: أي تعطر بنشوة النجاح.

(27) جاح: أي فسدت أخلاقه وطباعه.

(28) طاح: سقط وأخفق.

(29) أصلها دواؤه.

(30) أصلها اتسعي.

(31) صالون الضيافة.

(32) أي قده.

(33) أي صوته و حركاته.

(34) ذو مال و جاه.

(35) أي يخشى كيد الأيام و غدرها.

(36) دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004.

(37) من مواليد غرداية، في 13 نوفمبر 1951، من أعماله المطبوعة، اِمَطَّونْ اَزِقعَنْ (الدموع الحمراء) سنة 1990. وأيضاً تَايْدَرْتْ نْ وَغْلانْ (سنبلة الوطن) وغيرها من الأعمال الأخرى السمعية، والحصص الإذاعية...

(38) طبع دار الكتاب العربي، الجزائر.

(39) أول انو، المطبعة العربية، غرداية، 1994، ص: 41.

(40) نفسه، ص: 42.

(41) هذه العادة بغرداية شبيهة بعادة مماثلة في منطقة توات تسمى: " بْيَا نُّو"، حيث في هذه الأيام العشر الأولى من شهر محرم تُخَاط للأطفال أكياس من القماش ويوضع في فيها خيط، يُعلقونها في رقابهم ويطوفون بالمنازل لجمع بعض الهدايا خاصة الفول والحمص... وغيرها. وتكاد هذه العادة تزول من المنطقة.